

حول فضل الصيام

عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله ، مرني بعمل .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " عليك بالصوم ؛ فإنه لا عدل له " .

قلت : يا رسول الله ، مرني بعمل .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " عليك بالصوم ؛ فإنه لا عدل له " .

قلت : يا رسول الله ، مرني بعمل .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " عليك بالصوم ؛ فإنه لا عدل له " .

في هذا الحديث دلالة علي أهمية الصَّوم من بين العبادات الأخرى ونري هذه الأهمية في أن الله - سبحانه وتعالى - اختصه لنفسه من بين كل العبادات فقال : " كل عمل ابن آدم له إلا الصَّيام فإنه لي وأنا اجزي به " .

أولا : من خلال الحديث أيضا يتبين لنا قيمة الصَّيام عند الله - عز وجل - فإذا كان الإنسان يؤدّي بفقية الفرائض ، فإنما يؤديها لله - عز وجل - ولكن ، ما معنى أن ينسب الله - سبحانه وتعالى - الصيام لنفسه ؟

هذا يرجع لسببين :-

١- لما يتوافر في هذه العبادة من السرية التامة بين العبد وبين ربه لأن كل العبادات الأخرى تكون بمراى ومسمع من الناس فقد يدخلها الرياء ، أما الصوم ففيه من السرية ما يمنع الرياء وقال الأمام أحمد : " لا رياء في الصوم " .

٢- بالصَّيام نقهر عدو الله الشيطان وذلك لأن الإنسان يتعرض للجوع والعطش وبالتالي تضعف قواه وعليه تضعف شهوته وإذا ضعفت الشهوة نام عنه الشيطان لأن تصفيد الشياطين في شهر رمضان معناه ضعف قوى البشر مما يؤدّي إلى ضعف شهواتهم وإذا لم يجد الشيطان مرتعه في الإنسان وهو الشهوات فإنما يبقى مهزوماً مخذولاً وفي هذا هزيمة له ونصرة لله - عز وجل - وقال تعالى : " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " .

لهذين السببين خصّ الله - سبحانه وتعالى - الصَّيام لنفسه وجعل جزاءه بغير حساب ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصَّيام فإنه لي وأنا اجزي به ، لأن الصَّوم يدخل في نطاق الصبر وقال تعالى : " إنّما يؤفى الصابرون أجرهم بغير حساب " .

ثانيا : الصوم ربع الإيمان

في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :

" الصوم نصف الصبر " .

في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : " الصبر نصف الإيمان " .

وعنه أيضا قال : " الشكر نصف الإيمان " .

من هنا يتبين لنا أنَّ الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ؛ لأنَّ الإنسان إمَّا أن يكون في نعمة ورغد من الحياة ورخاء ، فعليه أن يشكر الله - عز وجل - وإمَّا أن يكون مبتلى فعليه أن يصبر ابتغاء مرضاة الله - عز وجل - ولذلك جاء حديث النبي - صلى الله عليه وسلم :
" عجا لأمر المؤمن إنَّ أمره كله خير وليس ذاك إلا للمؤمن إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له " .

علاقة الصوم بالصبر والشكر

بالنسبة للصبر فإنَّ الصوم امتناع عن الطعام والشرب والشهوة وهنا صبر على الجوع والعطش وعن الشهوة وعليه فإنَّ الصوم يعلمنا الصبر على هذه الأشياء ولذلك نرى في حديث أبي هريرة : " **الصوم نصف الصبر** " .

بالنسبة للشكر قال تعالى : " ولتكمّلوا العدة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون " . ومن هذا يتضح أنَّ إتمام صيام رمضان وتكبير الله في يوم العيد يؤدّي إلى شكر الله - عز وجل . وأيضا من الدروس المستفادة من صيام رمضان والهدف الأسمى منه هو تحصيل التقوى قال تعالى : " يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون " . هذه الآية تبين الهدف من الصيام وهو تحصيل التقوى وهناك ما هو أبعد منها أراد الله - سبحانه وتعالى - ممَّا أن نصل بها إلى شكر الله تعالى فقال تعالى : " واتقوا الله لعلكم تشكرون " . فالتقوى عتبة الوصول إلى الشكر وهي تحصل من الصيام . في هذا بيان لأهمية الصيام في تحقيق الإيمان الكامل بصبره وشكره .

أما عن التقوى :

فقد بيّنت الآية أنها (**التقوى**) المقصودة من وراء الصيام إن كان هناك قصد من ورائها وهو الوصول إلى الشكر (واتقوا الله لعلكم تشكرون) .
تحصيل التقوى من الدروس المستفادة من صيام رمضان ، فإذا صام العبد رمضان ، فلا بد أن تستيقظ التقوى في قلبه ، وتمنعه من ارتكاب المعاصي وفعل الحرام وتقربه من الله - عز وجل - وتحسن أخلاقه ولا أثر للشيطان عليه ؛ لأنَّ التقوى حارس أمين للإنسان من الشيطان ؛ لأنَّ الإنسان قلبه إمَّا أن يمتلئ بالحكمة والإيمان والتقوى ، وإمَّا أن يستقر فيه الشيطان ويملأه بالضغينة والحقد والكراهية فقلب الإنسان كالوعاء إذا ملئ بالماء خرج منه الهواء ، وإذا خرج منه الماء دخل إليه الهواء ، كذلك القلب إذا امتلئ بالتقوى والإيمان لا سبيل للشيطان عليه ، وإذا فرغ من التقوى والإيمان فسيدخله الشيطان ويملؤه بالحقد والضغينة والكراهية ، ويتحوّل إلى قلب ميّت لا يلين ولا يرق ولا يتأثر بكتاب الله ولا حتى بالموت .
والتقوى تحمي قلب الإنسان من الشيطان قال تعالى : " إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون " والبصر هنا ليس بصر العين وإنما هو بصر القلب عن طريق التقوى .

ولكن ما التقوى ؟

التقوى خوف . . خشية مستمرة . . حذر دائم . . توق لأشواك الطريق . . طريق الحياة . . طريق الحياة الملى بالرجائب والشهوات .

وقد عرّفها بعضهم بقوله : " أن يفتقدك الله حيث نهاك ، وألا يفتقدك حيث أمرك " .

سأل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أبي بن كعب عن التقوى : فقال أبي : أما سلكت طريقا ذا شوك ؟ قال عمر : بلى . قال أبي : ماذا صنعت ؟ قال عمر : شمريت واجتهدت . قال أبي : كذلك التقوى .

وقول أبي بن كعب يبين أن التقوى الابتعاد عن المعاصي والذنوب الكبيرة والصغيرة .

ولذلك قال ابن المعتز في ذلك شعرا :

خلّ الذنوب كبيرها	وصغيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر	ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة	إنّ الجبال من الحصى

وقد عرّف علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - التقوى بقوله :

" الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل "

ولو وقفنا مع تعريف علي بن أبي طالب للتقوى وجدنا دروساً وعبر من خلال هذا التعريف

أولاً : الخوف من الجليل

أي الخوف من الله - عز وجل - والخوف نعمة عظيمة لأنّه بمثابة السّوط الذي يردع الإنسان عن الوقوع في المعاصي ويؤدّي إلي حسن الجزاء في الآخرة .

قال تعالى : " وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس هن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى " .

وقال تعالى أيضا : " ولمن خاف مقام ربّه جنتان " .

وقال تعالى في الحديث القدسي : " وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين ، إن هو آمنني

في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع عبادي " .

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إنّ سلعة الله

غالية ألا إنّ سلعة الله الجنة " .

ثانياً : العمل بالتنزيل

والمراد بالتنزيل كتاب الله - عز وجل - أن نعمل به ونلتزم بحدوده ، فإذا وجدنا أمراً ، نقول سمعنا

وأطعنا ، وإذا وجدنا نهياً ، نقول سمعنا وانتهينا ، ولا يجب علينا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض

فإنّ آيات القرآن الكريم أكثر من ستة آلاف آية ، منها مئة وعشر آيات فقط تحدثت عن العبادات

وبقيّة الآيات تتحدث عن المعاملات فالنسبة بين آيات العبادات وآيات المعاملات هي ١ : ٦٠ جزءاً

وهذا يعنى أنّ الذين يهتمون بالعبادات ويسينون في المعاملات يطبقون جزءاً واحداً من ٦٠ جزءاً من

كتاب الله - عز وجل - وهذه طريقة الأمم السابقة الذين كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض

أما نحن أمّة محمد - صلى الله عليه وسلم - فنؤمن بالكتاب كله .

ثالثاً : الرضا بالقليل :

وهذا معناه لتحقيق التقوى أن يرضى الإنسان بما قسمه الله له ، ولا يقبل الحرام من أي طريق سواء

كان تعاملًا بالربا أو السرقة أو الغش أو الرشوة أو الاختلاس أو أي أمر من الأمور التي يأتي بها

الحرام وإذا اقتنع الإنسان بقليله من الحلال فإن الله يبارك له فيه ويسعد بهذا القليل ويشعر بأنه أغنى

الناس .

ولذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " ارض بما قسم الله لك ، تكن أغنى الناس " .

رابعاً : الاستعداد ليوم الرّحيل :

المراد بالرّحيل (الموت) وهذا يعنى أن التقوى إذا تواجدت في القلب فإنها تذكرنا بالموت وهذه وصية النبي - صلى الله عليه وسلم - : " أكثرُوا ذكر هادم اللذات " يعنى الموت ؛ لأنّ ذكر الموت يزهد في الدنيا ، ويبعد عن المعاصي ، ويلين القلوب ، ولا بد أن نستعدّ للموت بالأعمال الصالحة وتحصيل الحسنات وعدم ظلم العباد ، وردّ المظالم لمن ظلمناهم قبل الموت "

أثر التقوى في المتقين

روي أن يونس بن عبيد الله كان يبيع الحلل (الثياب) عنده ضرب بأربعمئة وضرب بمائتين ، خرج إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي يريد حلة بأربعمئة ، فأعطاه الغلام حلة بمائتين ، فحملها الرّجل على يده وانصرف ، فاستقبله يونس بن عبيد الله وهو قادم من الصلاة ، فرأى الحلة على يديه فعرفها ، فسأله : بكم اشتريتها ؟ فقال الأعرابي : بأربعمئة . فقال يونس : إنّها لا تساوي إلا مائتين . فقال الأعرابي : هي في بلدنا تساوي خمسمئة وأنا ارتضيها ، فقال يونس : تعال معي يا رجل ؛ فإنّ النّصح في الدّين خير من الدنيا وما فيها ، وذهب به إلى الدكان وخاصم ابن أخيه وقاتله ، وقال له : أما استحييت ؟ أما اتقيت الله ؟ تربح مثل الثمن ، وتترك النصح للمسلمين ! فقال الغلام : والله ما أخذها إلا وهو بها راض . فقال يونس : هلا رضيت له ما ترضاه لنفسك .
قال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر - رضي الله عنه - إلى مكة ، فرسنا بالطريق فأنحدر بنا راع من الجبل ، فقال له عمر : يا راعي ، بعني شاة من هذا الغنم .

قال الرّاعي : إني مملوك .

قال عمر له اختباراً : قل لسيدك أكلها الذّنب .

قال الراعي : وأين الله ؟

فبكى عمر - رضي الله عنه - وأخذ به إلى سيده وأعتقه وقال له : أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا وأرجو أن تعتقك يوم القيامة .

فالذي حرّك قلب هذا الرّجل (الراعي) وما فكر في الحرام إنّما هي التقوى الحارس الأمين الذي منعه من الوقوع في المهلكات والحرام .

ولا يخفى على الجميع المرأة التي أرادت أن تغش اللّبن .

وتذكرها ابنتها بمنع أمير المؤمنين لذلك ، فتقول أمها : وما أدري أمير المؤمنين بنا يا بني ، إنّّه لا يرانا .

فتردّ الابنة بالجواب المفحم : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فربّ أمير المؤمنين يرانا .

هذه هي التقوى وأثرها في عباد الله ولذلك لا بد أن نعلم لماذا فرض الله علينا الصيام ؟ ذلك لتحصيل التقوى حتى تعتدل القلوب وتعيش متصلة بالله - عز وجل - وتبعد عن الانحراف بسبب الشياطين والوقوع في الحرام .

وأرجو أن يتقبّل الله منّا جميعاً صالح الأعمال وأن نحصل التقوى بعد صيام هذا الشهر الفضيل وكل عام وأنتم جميعاً بخير .

أ / مجدي مختار إبراهيم
مدرس اللغة العربية